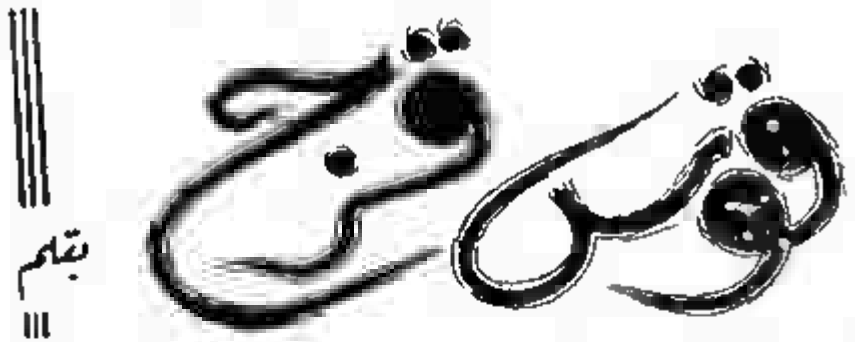

استيقظ السيد منصور السمان من نومه صباح يوم الجمعة ، فسأل زوجته دون أن يطرأ اليها :

ـ كيف حال الولد اليوم ؟

أجابت وهي تسوي الفراش

ـ هو أحسن حالا منه في الايام السابقة ، قبل أن يتم سقيته كوبا من عصير الليمون المركز ، والحمد لله هبطت حرارته الى المستوى العادي .

تناهى من فوره الى غرفة ولده المريض ، اتكأ على حافة الفراش ومسح برفق على خد الطفل ، فتح عينيه المذهولتين وحملق في وجه أبيه محملقة الى صدره وراح يهدهده .. سوف تشفى يابني ، وسوف تعيش لأبيك مدى الحياة ، سأأتيك بثياب جديدة ، وحذاء جديد ، وعندما تكبر ستذهب الى المدرسة ، وحينئذ اشترى لك حقيبة من الجلد الملون ، تضع فيها الكتب ، وتحملها في يدك ثم تسير بين التلاميذ مرفوع الرأس،كما كان يفعل أبوك وهو صغير ، لكني لا أريدك أن تعمل عملما عمل في سنك مثل أبيك ؟ لأنك في هذه الحال تملأ جيوب الناس بالجنيهات ثم تخرج صفر اليدين ! وحينئذ تصير عصبيا ودائما تخاف من وقوع الخطأ ! بالها من مهنة لعينة ! ، عندما يخطىء عمال السك في رقم حسابي تصبح حياته تعسة للغاية ! تصور يابني ، القطعة الصغير التي يسوقها عشرا تهدد الاسبال بالسجن ! اعلم هذا جيدا ! هيه ! ولكنك بالطبع لن تشتغل هذه المهنة ! أريد أن أراك طبيبا أو مهندسا هيه .. هذا ما أريده لك يابني !

تململ الطفل على صدر أبيه متضايقا ، فأرقده في الفراش ثم خرج الى الصالة ، سأل زوجته :

ـ هل أعددت الافطار ؟

أجابت من المطبخ

ـ الشاي على النار ، ومي الفطار اللين ..

فذهب الى الشرفة أملا في استنشاق هواء الصباح المنعش، بينما يأتي اللبن، التي نظرة على الشارع . موجز الحياة كما هي في كل يوم ، الناس والعربات والخيول ، وحتى الكلاب الضالة . كلها تسعى في اتجاهات مختلفة والى غايات متباينة لايدركها الا أصحابها . والشمس بنورها كانت قد ارتفعت فوق البيوت ودخلت من النوافذ والشرفات

ملقيه بدمها من ـــــحاء الى الاحياء والجمادات على السواء . بالقرب من رصيف الشارع لمح خبازا يركب عجلة ، على رأسه طوقان مايلتان بالخبز ، وفوق يده اليسرى طوقة ثالثة بينما امسك مقود العجلة بيده اليمنى ، وقدماه لاتكفان عن الحركة . فكر السيد منصور في ان هذا الخباز سوف يقع لا محالة ، وسوف يتعثر الخبز في الشارع ! فمد عنقه الى امام وفي بيته ان يصيح بأعلى صوته ! حاذر ايها الخباز ، ولكنه ادرك ان صوته لن يصل ، لأن الخباز كان قد غر بعيدا ، فتمتم لنفسه : هذا الشيطان الا يخاف ! ثم مرك يديه وأجاب نفسه : فليتصرف كما يحلو له ... هذه مهنته وهو حر فيها ، هي على أية حال خير من مهنة الصراف .. فيها حرية واطلاق ونشاط رائع . لكن مدير البنك لا يتركني اتصرف كما يحلو لي ! ترى ما الذي يحلو لي ؟ ماذا اريد بالضبط ؟ لو كان الامر بيدي لاعدت صنع حياتي من جديد . يودي لو اصبح شابا في العشرين ؟ حينئذ كنت اشتغل وظيفة أخرى ، وأتزوج فتاة متواضعة تقدر قيمة الرجل وتقدس الحياة الزوجية . زوجتي لا تفهمني ! ما اشبهها بمدير البنك ! تحتقني بتصرفاتها الحمقاء ولا تسمع لي شكوى . بجانب ذلك تعتقد انها طلبت مني ! كأني لم أكن في احلامها ! اين ذهبت وداعتها والبراءة التي كانت تشع من عينيها ؟ باية عين كنت اراها ؟ يالها من خدعة كبرى ! من الأوهق الا يرتبط الانسان باية امرأة ، فالخداع كامن وراء نظراتهن البريئة ، لكنا لا نراه الا بعد فوات الاوان ! كالغاطسة الحسابية لا يدركها الصراف الا حين يشيرون اليه بالصبع الاتهام !. في الشرفة المقابلة على مسافة لا تتجاوز عرض الشارع ، يقف طفل يلعب مبتسم يتطلع وتلمعه بأمل مريض . هذه هي البراءة الحقيقية . ما أجمل الحياة عندما يكون الانسان طفلا ! الاشياء البسيطة التي لا تثير انتباهنا تعتبر في نظرهم ذات قيمة كبرى ، وتملأ قلوبهم بالسعادة ها هو يقفز على قدم واحدة ، يالله من رقص جميل ! أجمل من هز البطون الفاجرة . توقف عن القفز ليحط شيء ما في يده على البلاط ، ماذا ترسم يا ولد ؟ يبدو انك فنان ، تأملاتك تثير الدهشة . لماذا تمحو رسمك بعد هذا المجهود ؟ لعل المطر لم يمحك ؟ حاول مرة أخرى ، لا تيأس . انا اجري عملية الحساب خمس مرات ! وفي كل مرة اكتشف خطأ جديدا ، حتى اصبحت أومن بأن كل ما أراه يحمل في طياته نوعا من الخطأ ! حتى وجودي نفسه يبدو في نظري خطأ من أساسه !.

عاد الطفل الى لعبة القفز من جديد ، فقال السيد منصور في نفسه : متى يشفى يأسي ومتى أراك تلعب هكذا ! . وخيل اليه انه يسمع انفاس ولده تتردد في سراعها مع الحمى ، فاتجه من فوره الى غرفة المريض . كان سليما في نوم هادئ مطمئن . وقف يتطلع اليه بعينين تومضان بالأمل والرجاء . صاحت زوجته من المطبخ .

ـ الافطار جاهز . ان كنت على موعد !.

توجه الى المائدة وهو يسائل نفسه : ماذا تقصد بقولها «ان كنت على موعد» هل تريدين اثارتي ؟ ياحضرة السيدة ؟ نظر اليها وهي مقبلة بكامل صينية الشاي بما عليها من أكواب اللبن المطلي وشرائح الخبز . فلما اقتربت من المائدة امسكت بالصينية من حافتها بيد واحدة ،

ثم راحت تجذب الكرسي بيدها الأخرى بمنتهى بقوة امصليهـــا ، فخشي السيد منصور ان تهوي امصليهـــا النحيلة ، فصرخ فيها :

ـــ حاسبي !

اهتزت يدها بالمعـــل فانطلق اللبن على شرائح الخبز ، وســـال من حافة الصينية مشـــكلا خيوطا بيضاء كرذاذ المطر . القت بها على المائدة صارخة .

ـــ ياعلي !

ثم راحت تجفف اللبن المتساقط بطرف المريلة ..

ارايت ؟ .. هذه نتيجة استهتارك ايتها الحمقاء !

رمقت اليه عينين مغيظتين توشكه ..

ـــ استهتاري انا ؟ يازينة الرجال!.. لماذا تدخل في شئوني بصراخك المزعج؟

ـــ تحملينني ـــ اذن مســـئولية احمقاتك ؟ هيـــه .. عودي الى المطبخ يا فاسحة !

ثم غادرها الى الشرفة مرة اخرى وفي صدره مرارة لا تطاق ! . اتعشـــه الهواء الرطب فاستكان الى الهـــدوء قال في نفسه .. ولكن ربما كانت زوجتي على حق ! لماذا اتدخل في شئونها بصراخي المزعج ؟ ماذا يحدث لو تركتها تتصرف كما تشاء ؟ ها انا ذا افسدت الامطار ! والخسارة على وحدي ! . استدار الى نافذة الشرفة ثم مضى الى الداخـــل هادئا .

ـــ انا آسف ! .. لن اتدخـــل في شئونك مرة اخرى .

وعاد ثانية الى الهواء المتمتع قبل ان يسمع تعليقها.كان طفل الشرفة المقابلة ما يزال يلعب لكن بشيء جديد . امسك دمية بلاستيكية من قدميها ، رفعها عالية فطهرت عيناها كلبلة .. بنت صـــغيرة بيضاء كالملين ، عارية كما خلقها المثل انت تحب الملابس ايها الشـــقي ! لكنك لا تدري بعد ما الخجل وما الحـــراء ! . امرلها ثانية الى مســـتوى نظره ثم خلع راسها من كتفيها ! قتلتها ! .. يبدو انك مهمت ما في عينيهـــا من مكر ! انت اذا ذكي من صغرك ! . وضـــع الراس بين الكفين ثانية وقلبهـــا بين يديه ، عادت الحياة تشع من عينيها مرة اخرى . هل تجرب عمليات السحر ؟ تدمها الى الارض سلمت يداك يا شـــهم . ليتني املك شجاعتك ! اذن لقتلت الدير وتعلمت من روحي ! لكن ولدي يريدها . وهذا سر المأســـاة ! ماذا تفعل ايها الشقي ؟ لعبتك الاخرى مسلية للغاية ، لماذا تركتها ؟ . هذه لعبة خطرة ياولد ! . ركب الطفل حافة الشرفة واخذ يهز رجليه منتشيا ، كما لو كان فارسا يركب حصانا .. لم يتمالك السيد منصور نفســـه فصرخ محذرا :

فالتفت الولد مذعـــورا .. وحينئذ شاهد السيد منصور لسمان جسـدا صغيرا يرفرف بيديه ورجليه في الهواء هابطا الى الارض كمـــا لو كان حمامة اصيبت برصاص صياد ! . اصطدم الجسد بحافة احـــدى النوافذ المفتوحة ، كانه كان يريد ان يدخلها ليحميها من ضربات الموت المتلاحقة ، ولكن الحافة الصـــلبة قذفته بعيدا كصفعة في وجه الحيـــاة ، فظل يهوي حتى ارتطـــم بالارض ، واسترخى في رقدته دون ان يحتج باية صرخة !. لعله لم يرد ان يعكر صفاء المشهد الذي يسود حياة الشـــارع . ولكن الامور لم تجر على حسب ارادته! تعكر الصفو تماما ، دوى صراخ حاد من النوافذ والابواب ، وتجمع الناس حول الجسد الساكن ، وراحوا يلغطون بكلام كثير لاطائل من ورائه . بعضـــهم انحنى

بالقانعة على القدر الذى سلب الطفل حياته بلا مبرر ظاهر ، وبعض آخر صب اللعنات على الأم التى تركت صغيرها يلعب فى الشرفة .

وهز المستسلمون رؤوسهم قائلين : كل شىء بقضاء وقدر . وشق السيد منصور طريقه الى حيث يرقد الطفل ثم أخذ يلوح بيديه فى وجهه وبخاطبه : معقولا : لماذا تلعب بهذه الطريقة ؟ أما كان الافضل لك أن تمارس لعبك المعتادة ؟ . كنت تقفز على قدم واحدة ! وكنت ترسم لوحاتك الفنية على البلاط ! وجئت بالدمية ماجريت عليها تجاربك ! هذه كلها أعمال رائعة ! لماذا لم تكتفيها ؟ ألم أصرح فيك بأعلى صوتى ! انزل يا ولد ! . لقد سمعتنى من غير شك ! ولكنك لم تفهم قصدى ! كنت أريد أن تنزل الى الشرفة لا الى الشارع ! » .

كان يتكلم بطريقة توحى بأنه قريب من الجنون مما جعل أهل الحى يجتنبونه بعيدا حتى لا يحن بالعمل . أما والدة الطفل فقد جعلت تصرخ بلا رحمة وتعوى بصوت مخنوق . ثم ارتمت على ولدها وراحت تضمه الى صدرها وتضغط عليه بحنان جنونى كما لو كانت تعيده الى بطنها مرة أخرى ! او لعل حرارة قلبها المكلوم تعيد اليه الحياة . فحملها الناس بطفلها الى البيت مع مزيد من اللعنات على اهمالها . حدث كل هذا فى وقت قصير جدا بحيث لا يحسب فى عمر الزمن ، ولهذا لم يؤثر فى مجرى الحياة أدنى تأثير ، مما جعل الشمس فى برجها تنظر الى الارض بسخرية مرة . وبدأ الناس يتفرقون الى شئونهم المعتادة متحمسين فى رتابة الحياة ، كما راح أهل المتسعدون لدعه يمضى الطريقة المعادية التى يمضى بها الاموات كل يوم . غير أن السيد منصور السمان كان ما يزال متململا بشكل ملحوظ ، وكان انفعاله مزيجا من الخوف والالم والاحباط بالحزينة . ظل يردد لنفسه : لقد صرخت بأعلى صوتى - انزل يا ولد ! وكنت أريده أن ينزل الى الشرفة ! لكنه نزل الى الشارع . لماذا ؟ لماذا كف عن لعبة القفز ؟ والتخطيط على البلاط ؟ واللهو بحياة الدمية الصغيرة ؟ ما الذى دعمه الى ركوب هذا الحصان الحجرى المتشاكس ؟ .. ومع ذلك فقد كان يهز رجليه متشفيا ، ويضرب ظهر الحصان بيديه كى يسرع فى الجرى ! وكان مطمئنا وسعيدا لكنى صرخت فيه بأعلى صوتى - انزل يا ولد ! وهكذا اطلقت عليه الرصاصة القاتلة دون أن أدرى ! .

احيانا كان صوته يرتفع حتى يسمع نفسه فيصمت مفكرا : هل أريد أن أصبح نفسى ؟ .. هل أعلن عن جريمتى أمام الملأ ؟ لماذا أرفع صوتى هكذا كالمجانين ولكنى لست مجرما ولا مجنونا ، كل ما فى الأمر أننى صحت على الولد من السقوط محاولت انقاذه . وان خانت النتيجة عكسية !. تماما كما حدث مع زوجتى ، حذرتها من انزلاق الثلج فانزلق بالفعل ! لماذا أ..تتحقق مخاوفى ؟ مع أننى بنفسه لها تماما ؟ ولكن لماذا أدافع بهذه الحرارة أمام اى ناس انراسيع ؟ .. أليس من الأوفق أن ألزم الصمت ؟ .. الا أتدخل فى اى شىء ؟ أن اترك الناس يسيرون على هواهم ! دون اى تفكير ! .. ولكنهم مع ذلك يتهمونى بما لم أفعل!.. المدير يتهمنى بالاختلاس لانه وجد « صفرا » ناقصا ، عندما حاولت اصلاحه أنى لم أر الصفر اطلاقا ! فهو يرى أن المال يعرى كل الناس حتى الطيبين منهم .. ! هكذا لينتهى أن أصبت الى

التهمة ، لن ادافع عن نفسي امام المدير سوف اتركه يتم عمليات الصرف ليتأكد بنفسه ان اموال البنك لم تنقص مليما واحدا ! لكن ما يستحق الاهتمام هو هذا الخطأ الجديد ! لم أنس صغرا هذه المرأة ولم أتهم بالختلاس مال ، ولكني قتلت طفلا بريئا بصرخة طائشة . كيف أدفع هذه التهمة ! زوجتي نفسها تستطيع أن تشهد ضدي ! تستطيع أن تقول : أن صرخته كالرصاص المنطلق من فوهة مسدس . صرخة رهيبة ، تخلع وتسقط أكواب اللبن من توق الصينية ! فما بالك بطفل حي بريء سريع التأثر ! . هذا ما تستطيع أن تقول ، وهي على حق في هذا . لن تنفعني مواياي الطيبة اذا ما ادعيتها ! . مرة أخرى ارتفع صوته دون أن يدري حتى سمع نفسه يصرخ بوضوح ، مضرب جبهته مؤنبا كما لو كانت هي التي تكلم ! . وفكر في سمية ! ولكن أحدا لم يتهمني بقتل الطفل ! لماذا أعذب نفسي بغير طائل! .ثم رفع رأسه وتنفس بعمق هدأ الشارع هادئا رتيبا كأن لم يحدث فيه شيء على الاطلاق . والمكان الذي سقط فيه الطفل كان خاليا من كل أثر ، سوى أن الشقة المقابلة التي كانت شرفتها مسرحا للهو والمرح أصبحت مظلمة بثوب حزين لا تراه العين وأكنه لا يخفى على القلب . ومحاة دوي [illegible]

صغير مرين بالورود . لقد انتهى أهل الميت من اعداده ، وحان وقت الدفن . جرى السيد منصور السمان وانضم بين الشيعين مرحبا اياهم لكل حركة ، قال في نفسه : لقد صرخت بكل شيء أمامهم حين سقط الولد ، لوحت في وجهه بيدي وقلت : اني صرخت فيه باعلى صوتي انزل يا ولد ! فنزل الى الشارع ! . ربما كان هذا الاعتراف وحده دليلا كافيا لادانتي ! .. ولكنني غير مدين بالمرة .. اقسم على هذا .. اني احب الطفل الذي مات كما أحب ولدي الذي اتمنى له الشفاء .. ولكنه كان يلعب لعبة خطرة ولم يفهم نصيحتي .

لاحظ أن صوته بدأ يرتفع . تطلع فيه صامتا استفاقه من نفسها . وراح يقلب عينيه في المشيعين محاولا قراءة وجوههم . لم ير غير الوجوم والصمت الحزين ! ثم دارت همسات خافتة كانت كلها خارجة عن الموضوع ! لم يتحدث اي واحد عن الموت او عن أسبابه ، بل ان بعضهم كان يتكلم عن الزواج والاعداد للعرس ! حتى حان موعد انصرافهم . مرجع السيد منصور السمان الى بيته وهلى شفتيه ابتسامة عريضة ، لا يدري هو نفسه كيف يفسرها لكنه اعتزم ان يلزم الهدوء ، والا يصرح ابدا . فلما دخل بيته رفع رأسه الى صدره وحمل نفسه [illegible]